العرب
الإثنين 2021/10/11
السنة 44 العدد 12206

عودة الشغف بالتصوير الفوتوغرافي التناظري في تحد للثورة الرقمية

برلين - رغم أن البعض يعتبره ضربا من الماضي يشهد التصوير الفوتوغرافي (الأنالوغ) انتشارا كبيرا في الآونة الأخيرة خاصة بين الشباب، فلماذا عاد الشغف به وسط ثورة رقمية وتقدم كبير في مجال الكاميرات الرقمية وكاميرات الهواتف الذكية؟

عندما تقدمت كوداك، الرائدة والعريقة في صناعة الكاميرات، بطلب لإعلان إفلاسها العام الجاري 2021 اعتقد كثيرون أن التصوير الفوتوغرافي التناظري سيكون ضربا من الماضي.

وحتى ذلك الوقت ظلت شركة كوداك الأميركية مسيطرة بلا منازع على سوق التصوير الفوتوغرافي لأكثر من قرن بما يشبه في وقتنا الحالي سيطرة شركات مثل فيسبوك وغوغل وأمازون على سوق التكنولوجيا.

> مبيعات الكاميرات الرقمية تراجعت بنسبة 90 في المئة تقريبا بين عامي 2010 و2019 في اليابان بحسب اتحاد منتجات التصوير

فمع انتشار الهواتف الذكية أصبح أغلب الناس يمتلكون كاميرات تلتقط الصور ومقاطع الفيديو بجودة عالية تضاهي جودة كاميرات التصوير، إذ بات من السهل التقاط آلاف الصور في كل وقت وفي أي مكان، وهو ما جعل التصوير الفوتوغرافي أمرا قديما عفا عليه الزمن.

ورغم ذلك عاد التصوير الفوتوغرافي ليشهد في الآونة الأخيرة نهضة وانتشارا لاستخدامه خاصة بين محبي هذا النوع من التصوير، ومن بينهم جيسون كومرفيلد، وهو مصور أميركي في عامه التاسع والعشرين.

وفي مقابلة مع دويتشة فيللة قال كومرفيلد "أتحدث كثيرا عن التصوير الفوتوغرافي بعشق كبير عبر قناتي على موقع اليوتيوب. لم يكن لدي أي اهتمام في الماضي بالتصوير الفوتوغرافي، لكن بعد استخدامه أصبحت مدمنا على استخدام هذا النوع من التصوير".

ويحظى كومرفيلد بمتابعة مكثفة على موقع اليوتيوب إذ يشاهده مئات الآلاف من المتابعين، بيد أنه ليس الشخص الوحيد الذي بات مولعا بالتصوير الفوتوغرافي، إذ انتشر الأمر بين الشباب وهو ما بات جليا على مواقع التواصل الاجتماعي.

خلال السنوات القليلة الماضية شهدت مواقع إنستغرام ويوتيوب ورديت إنشاء مجموعات تضم ملايين المتابعين من محبي التصوير الفوتوغرافي، فيما حظي هاشتاغ "فيلميزنوتداد" بشعبية واسعة وصلت إلى حد نشر أكثر من 20 مليون صورة.

وأكد كومرفيلد على أن مواقع التواصل الاجتماعي لعبت دورا في إحياء الولع بالتصوير الفوتوغرافي.

وقد لاحظت كبرى الشركات في مجال التصوير -لاسيما كوداك وفوجي فيلم- هذا الإقبال الشديد على التصوير الفوتوغرافي، وهو ما أشارت إليه شركة "كوداك ألاريس" التي توزع أفلام كوداك منذ إفلاس الشركة الأم.

وأعربت الشركة في تصريح لدويتشة فيللة عن "تحمسها وتفاؤلها بشأن مستقبل التصوير".

وقالت الشركة "على الرغم من أن التصوير الرقمي يسيطر على السوق، إلا أنه منذ عام 2016 رأت الشركة تزايدا في الطلب على منتجات التصوير الفوتوغرافي وسط تنامي الرغبة في التصوير الفوتوغرافي التناظري خاصة بين الأجيال الشابة".

وأضافت الشركة أن الاستطلاعات تشير إلى أن ثلث المستهلكين تقل أعمارهم عن 35 عاما.

أما شركة فوجي فيلم فقد لاحظت في السنوات العشر الماضية انتعاشا كبيرا في مجال التصوير الفوتوغرافي، إذ باعت في عام 2010 أكثر من نصف مليون كاميرا من نوع "أنستاكس" في جميع أنحاء العالم، وخلال العام الماضي وصلت المبيعات إلى أكثر من 10 ملايين.

وقال آندي روس الذي يعمل في "فوجي فيلم أوروبا" إن "جيل الشباب يتجه بشكل خاص في الأعوام الأخيرة إلى شراء كاميرات التصوير الفوتوغرافي وامتلاك كاميرات بولارويد".

وفي سياق متصل تزايدت أسعار كاميرات التصوير الفوتوغرافي في السنوات الأخيرة، إذ عزت الشركات المتخصصة في هذا المجال ذلك إلى ارتفاع أسعار المواد الخام وتكاليف الشحن.

وأقرت شركة "إيباي" بأن هناك نموا في مبيعات كاميرات التصوير الفوتوغرافي في السنوات الأخيرة.

ورغم ارتفاع الأسعار لا يزال عدد عشاق التصوير الفوتوغرافي في تزايد ما يدل على أن هذا النوع من التصوير له مستقبل واعد.

ودفع هذا السبب الكثير من الشركات مثل "سيلبرسالز" الألمانية إلى استثمار الكثير من الأموال في مجال التصوير الفوتوغرافي، وفقا لما أشار إليه مدير الشركة توماس بيرغمان.

وأضاف "يشهد مجال التصوير الفوتوغرافي للأفلام نشاطا مذهلا في الوقت الحالي"، مشيرا إلى أن "نصف عملاء الشركة من الشباب الذين تقل أعمارهم عن 20 عاما ممن يشتاقون البساطة، فضلا عن أن التصوير الفوتوغرافي يعطي نتائج عالية الجودة بأسعار منخفضة نسبيا خاصة للمبتدئين مقارنة بالكاميرات الرقمية باهظة الثمن".

ويتزامن الطلب المتزايد على كاميرات التصوير الفوتوغرافي مع انخفاض الطلب على الكاميرات الرقمية حيث يفضل الكثيرون كاميرات الهواتف الذكية، إذ أظهرت بيانات "اتحاد الكاميرات ومنتجات التصوير" في اليابان تراجع مبيعات الكاميرات الرقمية بنسبة 90 في المئة تقريبا بين عامي 2010 و2019 في ظل جائحة كورونا.

وخلال العام الماضي أعلن معرض "فوتوكينا" العالمي في مدينة كولونيا الألمانية -الذي يُعرف بتقديمه لأحدث ما وصلت إليه التكنولوجيا في مجال التصوير وتقنيات الصورة- أنه يعتزم وقف نشاطه حتى إشعار آخر.

وعزا المعرض قراره إلى انخفاض الطلب على شراء منتجات التصوير بالتزامن مع التراجع الكبير في المبيعات في مختلف أسواق العالم.

شباب يفضلون التناظر على الرقمي

معرض رجل لا يصور إلا بلاده

جاك بيريز الأب الروحي للمصورين الفوتوغرافيين في تونس

العين هي من تصنع الصورة وليست الكاميرا

يعتبر جاك بيريز الأب الروحي للمصورين في تونس؛ فقد أمضى أكثر من خمسين سنة متجولا في ربوع البلاد بين مدنها وقراها وأحيائها الشعبية والراقية يحمل الكاميرا بحثا عن الحقائق الإنسانية من خلال الإيماءات والتعبيرات ونظرات الناس العفوية، فكان شاهدا على جزء كبير من تاريخ تونس الحديث وأيضا على ظهور فن التصوير الفوتوغرافي في البلاد وتطوّره.

من تفاصيل الحياة اليومية

تونس - بعد أكثر من خمسين عاما من العمل في هذا المجال لم يفقد المصوّر التونسي جاك بيريز الذي يُعدّ مؤسس التصوير الفوتوغرافي في تونس شيئا من حماسه، مؤكّدا وهو في التسعين من العمر أن "العين هي التي تصنع الصورة وليست الكاميرا".

ويقام معرض لأعماله تحت عنوان "ذكريات ما قبل النسيان" في أحد قصور المدينة العتيقة في تونس التي تصنّفها منظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم (يونيسكو) على أنها من أجمل مدن العالم العربي.

وذكر المصوّر "لم يعلّمني أحد كيف ألتقط الصور، فلا حاجة إلى ذلك. والفضل للعين. ويحلو لي أن أستعرض المشهد كاملا بـ360 درجة وأظهر ما رأيته. ولم أشعر بانجذاب إلى المجال، فقد حدث الأمر بالفطرة".

وجاك بيريز هو مصور تونسي من أب تونسي وأم ألمانية، ولد ونشأ في المدينة العتيقة حيث ولع بالتصوير الفوتوغرافي وتوثيق كل ما هو تونسي من ملامح ومعمار وأزياء وحلي وعادات وتقاليد.

قال "كنت محظوظا بأن والدتي الألمانية وجدّتي الإيطالية كانتا تقدّمان لي مجلّات مرفقة بصور".

وبعد ممارسة التصوير كهواية لمدّة 15 عاما إلى جانب عمله في التدريس، طلب منه ناشر تونسي مهمّ كتاب صور عن سيدي بوسعيد، وهي مدينة معروفة ببيوتها البيضاء والزرقاء تقع في شمال تونس، فانطلقت مسيرته الاحترافية.

واختار لمعرضه هذا "صورا رمزية" قال عنها "يخاطبني الناس وتثير وجوههم اهتمامي وأرغب في معرفة المزيد عنهم".

بات الناس ميزة أساسية في عمل المصوّر الذي ذاع صيته في العالم، من الولايات المتحدة إلى فرنسا مرورا بإيطاليا.

وقال حميد الدين بوعلي القيّم على هذا المعرض إن "جاك مصوّر يتحلّى بحسّ إنساني. وهو أسّس لجيل بكامله".

ومن الخصائص الأخرى التي تميّز بها جاك بيريز أنه لم يرد يوما تصوير بلد غير بلده، ويقول عن ذلك "لا أشعر بأنني معني سوى بتونس".

لهذا السبب بالتحديد اختارت جمعية "تونس تجمعنا" تخصيص معرض له. فهذه المؤسسة التي تنشط في مجال الحفاظ على التراث الوطني تسعى لـ"تفكيك السرديات الوطنية" التي تحصر تونس في هوية عربية مسلمة، على حدّ قول رئيستها رابعة بن عاشور.

وتظهر أعمال بيريز أن "البلد يزخر بتعددية مذهلة. ويتلاقى فيه اليهود والمسلمون والعمّال والمتسكّعون وتقاليد الصيد والزواج...".

هي تونس أزلية و"عابرة للأزمان". وليست الصور أصلا مؤرّخة ومن الممكن أن تكون قد التقطت اليوم، إلا تلك التي تظهر مهرّجين خلال أمسيات رمضانية.

وقال بيريز "تونس تضمحّل وهذا هو المغزى من التاريخ ولا يمكننا احتباسها"، مؤكدا أنه لا يحنّ إلى أي لحظة خاصة.

> جاك بيريز لا يزال مندهشا من كيفية تلقّفه لحظة سقوط قطرة من جرّة حامل مياه في صورة

وتعكس الصور المعروضة المواضيع التي شكّلت محور أعماله، من سيدي بوسعيد والبحر والصيّادين والحياة اليومية للتونسيين والحرف القديمة وتلك اليدوية والنساء، مع صورتين بارزتين هما "سيّدة الشبيكة" و"السيّدة والأسد".

وما هو سرّ هذه الصور العفوية التي "لم تؤخذ يوما من دون موافقة أصحابها أو بالعدسة المقرّبة؟".

بالنسبة إلى سيّدة الشبيكة ذات الوجه المحفور بالتجاعيد "كان وجهها يثير اهتمامي ولم أكن أعرف إن كان في وسعي أن أقاربها، فاقتربت منها ولم تبدر أي ردّة فعل عنها، واقتربت أكثر وبادرتني بإيماءة شبه معبّرة فالتقطت الصورة".

ولا يلجأ المصوّر إلى التخطيط بل إلى البديهة، مع الإشارة إلى أن "المصوّرين يتمتّعون بالقدرة على التنبؤ بالخطوة التالية".

وجاب بيريز البلاد التونسية من شمالها إلى جنوبها، ووثق بعدسته المدن والأرياف والقرى، منها سيدي بوسعيد والملاسين وباب سويقة والقيروان وجربة ودوز وقرقنة ومطماطة وغار الملح والحمامات وقفصة والكاف وغيرها من المناطق التونسية الساحرة.

وحافظ على القدرة على الاندهاش التي يتميّز بها الأطفال ولا يزال مندهشا من كيفية تلقّفه لحظة سقوط قطرة من جرّة حامل مياه وتخليدها في صورة.

والمسألة كلّها مسألة "صبر" و"اقتناص اللحظة المناسبة دون استعجالها"، كما هي حال صورة شارع في المدينة العتيقة تحت شمس ساطعة. وبكلّ بساطة "كانت الساعة الواحدة ظهرا في عزّ شهر أغسطس"، وفق ما يحلو له أن يقول.

وتحصّل بيريز على العديد من الألقاب والجوائز، أهمها جائزة تونس الوطنية للفنون والآداب ووسام الاستحقاق الثقافي للجمهورية التونسية ووسام فارس الفنون والآداب من الجمهورية الفرنسية.

تم اقتناء مجموعاته دوليا من قبل مؤسسات مرموقة، مثل اليونسكو ومؤسسة الآغا خان والمكتبة الوطنية الفرنسية ومعهد العالم العربي بباريس والمتحف الوطني الفلسطيني ودار التصوير الأوروبي ووزارة الثقافة الفرنسية.

وبقي جاك بيريز محافظا على تواضعه، ويقول عن ذلك "لا آخذ نفسي على محمل الجدّ ويسعدني أن ألتقط الصور".

وشدّد قائلا "لست الأب ولا النسيب ولا الجدّ بالنسبة إلى التصوير الفوتوغرافي التونسي، أنا مجرّد مصوّر فوتوغرافي في تونس".